المحاضرة الرابعة

بحث الفصاحة عند ابن سنان الخفاجي

عاش ابن سنان الخفاجي في العصر الذي شهد حياة عبد القاهر الجرجاني صاحب المؤلفين البلاغيين والنقديين العظيمين: دلائل الإعجاز ، وأسرار البلاغة. وهو العصر الذي آلت إلى علماء البلاغة فيه حصيلة وافرة من الآراء والنظريات والبحوث التطبيقية في البلاغة والفصاحة ونقد الشعر، فصار بإمكانهم أن يتحدثوا في قوانين البلاغة والفصاحة بقدر من الثقة يدل عليها استعمالهم مصطلح "السر"؛ فكما سمى عبد القاهر أحد كتابيه الجليلين "أسرار البلاغة" سمى ابن سنان (ت466ه) كتابه البلاغي الذي اشتهر به "سر الفصاحة". وفي التسمية إشارة إلى ما يتمتع به هذا الناقد من ثقة في النفس وقوة شخصية، وقد أكّد مضمون الكتاب هذه الإشارة، إذ اشتمل على آراء جديدة ودقيقة ومفصلة في ماهية الفصاحة وشروطها وفي مسائل أخرى تتصل بالإبداع، فيها من الاستقصاء العلمي والحس النقدي ما يدعو إلى الإعجاب.

وقد جرى تأليف الكتاب على نحو منهجي شبيه بما صار إليه التأليف في عصرنا من تحديد دقيق لموضوع البحث، وترتيب متماسك لفصوله، ومن تحري استيفاء لمادة كل فصل تعليلا وتحليلا وتمثيلا، ومن بروز لشخصية الباحث استقلالا في الرأي وقدرة على الإضافة. وهذه مزية في الكتاب وفي المؤلف تستحق كل الثناء.

فموضوع هذا الكتاب هو البحث في سر الفصاحة. وقد ذكر المؤلف في مقدمته ما يكشف مادته وغايته فقال:

"ونحن نذكر قبل الكلام في معنى الفصاحة نبذا من أحكام الأصوات والتنبيه على حقيقتها، ثم نذكر تقطعها على وجه يكون حروفا متميزة، ونشير إلى طرف من أحوال الحروف في مخارجها، ثم ندل على أن الكلام ما انتظم منها، ثم نتبع ذلك بحال اللغة العربية وما فيها من الحروف وكيف يقع المهمل فيها والمستعمل، وهل اللغة في الأصل مواضعة أو توقيف، ثم نبين هذا كله وأشباهه مائية الفصاحة. ولا نخلي ذلك الفصل من شعر فصيح وكلام غريب بليغ يتدرب بتأمله على فهم مرادنا؛ فإن الأمثلة توضح وتكشف، وتخرج من اللبس إلى البيان، ومن جانب الإبهام إلى الإفصاح. فإذا أعان الله تعالى ويسر تمام كتابنا هذا كان مفرداً بغير نظير من الكتب في معناه."[1]

ومن أهم فصول هذا الكتاب فصلٌ في اللغة أشاد فيه بمزية العربية وفضلها على سائر اللغات، بل وفضل أهلها أيضا على سائر الأمم. وقد قدّم في ذلك من الأدلة ما عساه يقنع كثيرا من أهل النظر والتحقيق والإنصاف.

غير أن أهم ما ورد في الكتاب هو تفصيله مفهوم الفصاحة وحدها وشروطها بألوان من الإضافات لم تكن عند سواه. فقد ذكر أن الفصاحة تكون في الكلمة المفردة كما تكون في الألفاظ المنظومة بعضها مع بعض، بثمانية شروط، ونفسح للخفاجي المجال واسعا للحديث عن هذه الشروط، لأهميتها وأهمية الإضافات التي جاء بها:

"**الأول**: أن يكون تأليف تلك اللفظة من حروف متباعدة المخارج ... وعلة هذا واضحة، وهي أن الحروف التي هي أصوات تجرى من السمع مجرى الألوان من البصر. ولا شك في أن الألوان المتباينة إذا جمعت كانت في المنظر أحسن من الألوان المتقاربة. ولهذا كان البياض مع السواد

---

[1] ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، تحقيق إبراهيم شمس الدين، كتاب-ناشرون، بيروت، ط1، 1431ه-2010م، ص40.

أحسن منه مع الصفرة، ولقرب ما بينه وبين الأصفر وبعد ما بينه وبين الأسود. وإذا كان هذا موجودا على هذه الصفة لا يحسن النزاع فيه كانت العلة في حسن اللفظة المؤلفة من الحروف المتباعدة هي العلة في حسن النقوش إذا مزجت من الألوان المتباعدة. وقد قال الشاعر في هذا المعنى:

فالوجه مثل الصبح مبيضٌ ... والفرع مثل الليل مسودُّ
ضدان لما استجمعا حسنا ... والضد يظهر حسنه الضدُّ

وهذه العلة يقع للمتأمل وغير المتأمل فهمها ولا يمكن منازعا أن يجحدها.

ومثال التأليف من الحروف المتباعدة كثير جُلُّ كلام العرب عليه فلا يحتاج إلى ذكره.

فأما تأليف الحروف المتقاربة فقد قدمنا في الفصل الرابع مثالا حكى منه وهو الهعخع. ولحروف الحلق مزية في القبح إذا كان التأليف منها فقط. وأنت تدرك هذا وتستقبحه كما يقبح عندك بعض الأمزجة من الألوان وبعض النغم من الأصوات.

والثاني: أن تجد لتأليف اللفظة في السمع حسناً ومزية عل غيرها، وإن تساويا في التأليف من الحروف المتباعدة. كما أنك تجد لبعض النغم والألوان حسناً يتصور في النفس ويدرك بالبصر والسمع دون غيره مما هو من جنسه. كل ذلك لوجه يقع التأليف عليه. ومثاله في الحروف ع ذ ب؛ فإن السامع يجد لقولهم العذيب اسم موضع وعذيبة اسم امرأة وعذب وعذاب وعذب وعذبات مالا يجده فيما يقارب هذه الألفاظ في التأليف. وليس سبب ذلك بعد الحروف في المخارج فقط ولكنه تأليف مخصوص مع البعد. ولو قدمت الذال أو الباء لم تجد الحسن على الصفة الأولى في تقديم العين على الذال لضرب من التأليف في النغم يفسده التقديم والتأخير

وليس يخفى على أحد من السامعين أن تسمية الغصن غصناً أو فنناً أحسن من تسميته عسلوجاً. وأن أغصان البان أحسن من عساليج الشوحط في السمع . ويقال لمن عساه ينازعنا في ذلك: لو حضرك مغنيان وثوبان منقوشان مختلفان في المزاج هل كان يجوز عليك الطرب على صوت أحد المغنيين دون صاحبه وتفضيل أحد الثوبين في حسن المزاج على الآخر! فإن قال لا يصح أن يقع لي ذلك خرج عن جملة العقلاء وأخبر عن نفسه بخلاف ما يجد وأن اعترف بما ذكرناه قيل له فخبرنا ما السبب الذي أوجب عليه ذلك فإنه لا يجد أمراً يشير إليه إلا ما قلناه في تفضيل إحدى اللفظتين على الأخرى، وقد يكون هذا التأليف المختار في اللفظة على جهة الاشتقاق فيحسن أيضاً، كل ذلك لما قدمته من وقوعه على صفة يسبق العلم بقبحها أو حسنها من غير المعرفة بعلتها أو بسببها. ومثال ذلك مما يختار: قول أبي القاسم الحسين بن علي المغربي في بعض رسائله ورعوا هشيما تأنّفت روضه؛ فإنّ تأنفت كلمة لا خفاء بحسنها لوقوعها الموقع الذي ذكرته. وكذلك قول أبي الطيب المتنبي:

إذا سارت الأحداج فوق نباتهِ ... **تفاوحَ** مِسكُ الغانيات ورندهُ

فإن تفاوح كلمة في غاية من الحسن. وقد قيل إن أبا الطيب أول من نطق بها على هذا المثال وإن وزير كافور الأخشيدي سمع شاعرا نظمها بعد أبي الطيب: فقال أخذتموها!

ومثّال ما يكره قول أبي الطيب أيضا:

مبارك الاسم أغرُّ اللقب ... كريم **الجِرِشّى** شريف النسبْ

فإنك تجد في الجرشى تأليفاً يكرهه السمع وينبو عنه.

ومثل ذلك قول زهير بن أبي سلمى:

تقيٌّ نقيٌّ لم يكثِّر غنيمةً ... بنهكة ذي قربى ولا **بحقلَّدِ**

الحقلد ـ كلمة توفي على قبح الجرشي وتزيد عليها.

والثالث: أن تكون الكلمة كما قال أبو عثمان الجاحظ غير متوعرة وحشية كقول أبي تمام:

لقد طلعتْ في وجه مصر بوجهِهِ ... بلا طائرٍ سعدٍ ولا طائرٍ **كهلِ**

فإن كهلا ها هنا من غريب اللغة . وقد روى أن الأصمعي لم يعرف هذه الكلمة وليست موجودة إلا في شعر بعض الهذليين وهو قوله:

فلو كان سلمى جاره أو أجاره ... رياح بن سعد ردَّه طائرٌ **كهلُ**

وقد قيل :إن الكهل الضخم وكهل لفظة ليست بقبيحة التأليف لكنها وحشية غريبة لا يعرفها مثل الأصمعي.

ومن ذلك أيضاً ما يروى عن أبي علقمة النحوي من قوله :ما لكم **تتكأكؤون** على **تكأكؤكم** على ذي جنة **افرنقعوا** عني. فإن تتكأكؤون وافرنقعوا - وحشي وقد جمع لعمري العلتين مع قبح التأليف الذي يمجه السمع والتوعر. وما أكثر ما تجتمع العلتان في هذا الجنس. ومن الأمثلة قول أبي تمام:

بنداك يوسى كل جرح يعتلى ... رأب الأساة **بدردبيسٍ** قنطرِ

وكذلك قوله:

قدك اتَّئدْ أربيتَ في الغلواءِ

فإن هذه الألفاظ كما ترى وحشية .ويوجد هذا الجنس في شعر العجاج وابنه رؤبة كثيراً. (...) ولهذا كله أعتمد الحذاق من الشعراء على اختيار أسماء المنازل والنساء في الغزل وتجنبوا ما لا يحسن لفظه للشروط التي ذكرناها. وعابوا قول جرير بن عطية:

وتقول **بوزع** قد دببت على العصا ... هلا هزئت بغيرنا يا **بوزعُ**

وذكروا أن الوليد بن عبد الملك .قال :له أفسدت شعرك ببوزع.

ومن الألفاظ التي ذكرناها قول أبي عبادة البحتري:

فلا وصل إلا أن يطيف خيالها ... بنا تحت **جُؤشوشٍ** من الليل مظلمِ

فليس بقبح جؤشوش خفاء. هذا على أنني لم أعرف شاعراً قديماً ولا حديثاً أحسن سبكاً من أبي عبادة ولا أحذق في اختيار الألفاظ وتهذيب المعاني.

ومن ذلك أيضاً قول أبي تمام:

صَهْصَلقٍ في الصهيل تحسبهُ ... أشرجَ حلقومه على جرسِ

وقول القطامي:

إلى **حيزبونٍ** توقد النار بعد ما ... تصوبت الجوزاء قصد المغاربِ

فهل تعرف أوعر من صهصلق أو حيزبون؟

وعلى كل حال فالبدوي صاحب الطبع في هذا الفن أعذر من القروي المتكلف. لأن هذا لا يعرف هذه إلا بعد البحث والطلب وتجشم العناء في التصفح. وعلى قد ذلك يجب لومه والإنكار عليه.

والرابع :أن تكون الكلمة غير ساقطة عامية كما قال أبو عثمان أيضاً .ومثال الكلمة العامية قول أبي تمام:

جليت والموت مُبْدٍ حُرَّ صفحتِهِ ... وقد **تَفرعنَ** في أفعاله الأجلُ

فإن تفرعن مشتق من اسم فرعون. وهو من ألفاظ العامة .وعادتهم أن يقولوا :تفر عن فلان إذا وصفوه بالجبرية.

ومنه قول أبي نصر عبد العزيز ابن نباتة:

أقام قوامَ الدين زيغ قناتهِ ... وأنضج كيَّ الجرح وهو **فطيرُ**

فتأمل لفظة فطير تجدها عامية مبتذلة إن كانت لعمري قد وقعت هنا موقعاً لو كانت فصيحة هجنها وأذهب طلاوتها. كيف وهي على ما تراه . فأما قول أبي الطيب المتنبي:

إني على شغفي بما في خُمْرِها ... لأعفُّ عمّا في **سراويلاتها**

فلا شيء أقبح من ذكر السراويلات. وما أعرف كناية أشهد الله أن التصريح أجمل منها ووصف عفة سلوك لريب والنهم أحسن من التلفظ بها إلا كناية أبي الطيب هذه ونعته عفافه هذا النعت.

وليس ايرادي هذه الأمثلة على جهة الطعن على هؤلاء الشعراء الفضلاء والغض منهم.

وكيف يكون ذلك وسأورد من غرائبهم وبدائع كلامهم ما يعلم معه أننا تحت تقصير عن شأوهم ويقع العجز عن أدراك القريب من غاياتهم. لكني إذا احتجت إلى إيراد الأمثلة في المختار والمنبوذ والمحمود والمذموم فلا معدل لي عن أشعارهم وتصفح نظمهم وأخذ ما أريده منها وإيراده عنها في الصنفين معاً.

والخامس : أن تكون الكلمة جارية على العرف العربي الصحيح غير شاذة ويدخل في هذا القسم كل ما ينكره أهل اللغة ويرده علماء النحو من التصرف الفاسد في الكلمة. وقد يكون ذلك لأجل أن اللفظة بعينها غير عربية .كما أنكروا على أبي الشيص قوله:

وجناح مقصوص تحيَّفَ ريشَهُ ... ريبُ الزمان تحيُّفَ **المقراضِ**

وقالوا : ليس المقراض من كلام العرب.

وقد تكون الكلمة عربية إلا أنها قد عبر بها عن غير ما وضعت له في عرف اللغة كما قال أبو تمام:

حلّت محلَّ البكرِ من معطى وقد ... زُفَّت من المعطى زفافَ **الأيّمِ**

وقال أبو عبادة:

يشق عليه الريح كل عشية ... جيوبَ الغمام بين بكر **وأيّمِ**

فوضع الأيم مكان الثييب وليس الأمر كذلك. ليس الأيم الثيب في كلام العرب إنما الأيم التي لا زوج لها بكراً كانت أو ثيباً . قال الله عز وجل :((وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ)) وليس مراده تعالى نكاح الثيبات من النساء دون الأبكار وإنما يريد النساء اللواتي لا أزواج لهن .وقال الشماخ بن ضرار:

يَقرُّ بعيني أن أحدِّث أنها ... وإن لم أنلها أيِّمٌ لم تزوَّج

وليس يسره أن تكون ثيباً. وقد حكى أن بعض كبار الفقهاء وهو محمد بن إدريس الشافعي غلط في ذلك والصحيح ما ذكرناه.

ومثال هذا أيضا قول أبي تمام:

ما مقرب يختال في أشطانه ... ملآن من صلف به **وتَلَهْوُقِ**

يريد بالصلف هنا الكبر والتيه، وهذا مذهب العامة في استعمال هذه اللفظة . وأما العرب فتقول : صلفت المرأة عند زوجها إذا لم تحظ عنده وصلف الرجل أيضاً كذلك إذا كرهته .قال جرير:

إني أواصل من أردت وصالَهُ ... بحبال لا **صلِفٍ** ولا لوّامِ

والصلف الذي لا خير عنده. ومن أمثالهم رب صلف تحت الراعدة.

ومن ذلك أيضاً قول أبي عبادة:

شرطي الأنصاف إن قيل اشترطْ ... وصديقي من إذا صافي **قَسَطْ**

وأراد بقسط عدل . لأن الأمر عليه، وليس الأمر كذلك وإنما يقال أقسط : إذا عدل، وقسط: إذا جار . قال الله تعالى :((وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً)).

وقد يكون ما ذكرناه على جهة الحذف من الكلمة كما قال رؤبة ابن العجاج:

قواطناً مكة من ورق الحما

يريد الحمام .كقول خفاف بن ندبة:

كنواح ريش حمامة نجدية ... ومسحت باللثتين عصف الإثمدِ

يريد كنواحي. وكما قال غيره هو مضرس بن ربعي:

وطرت بمنصلي في يَعملاتٍ ... دوامي **الأيد** يخبطن السريحا

والوجه الأيدي.

ومن ذلك قول النجاشي:

قلست بآتيه ولا أستطيعه ... **ولاكِ** أسقِني إن كان ماؤك ذا فضلِ

أراد ولكن .

وقال أبو الطيب المتنبي:

تعثرت به في الأفواه ألسنُها ... والبرد في **الطُّرْقِ** والأقلام في الكتب.

وقد يكون على وجه الزيادة في الكلمة مثل أن يشبع الحركة فيها فتصير حرفا كما قال:

وأنت على الغواية حين ترمى ... وعن عيب الرجال **بمُنتَزاح**

أي بمنتزح . وقال غيره:

وانني حيثما يسرى الهوى بصري ... من حيث ما نظروا أدنو فأنظورُ

يريد أدنو فأنظر . وقال الآخر:

تنفي يداها الحصا في كل هاجرة ... نفي **الدراهيم** تنقاد **الصياريف**

يريد الدراهم والصيارف.

وقد يكون إيراد الكلمة على الوجه الشاذ القليل وهو أردأ اللغات فيها لشذوذه.

والكثير أبداً خفيف كما يقول النحويون في خفة الأسماء لكثرتها .ومن هذا قول البحتري:

متحيرين **فباهت** متعجِّبٌ ... مما يرى أو ناظرٌ متأملُ

فقوله باهت لغة رديئة شاذة .والعربي المستعمَل بُهِتَ الرجلُ يبهت فهو مبهوت ومنه قول المتنبي:

وإذا الفتى طرح الكلام معرِّضاً ... في مجلس أخذ الكلام **اللّذْ** عَنا

فإن اللذ في الذي لغة شاذة قليلة .ومنه قوله أيضاً:

أيفطمُه **التورابُ** قبل فطامِهِ ... ويأكله قبل البلوغ إلى الأكلِ

فالتوراب لغة في التراب شاذة غير كثيرة.

وقد يكون لأن الكلمة بخلاف الصيغة في الجمع أو غيره كما قال الطرماح:

وأكره أن يعيب عليَّ قومي ... هجايَ الأرذلين ذوي **الحِناتِ**

فجمع إحنة على غير الجمع الصحيح لأنها إحنة وإحن ولا يقال حنات.

ومن هذا الفصل أيضا أن يبدل حرف من حروف الكلمة بغيره كما قال الشاعر هو رجل من بني يشكر:

لها أساريرُ من لحم متمَّرة ... من **الثعالي** ووخز من **أرانيها**

يريد من الثعالب وأرانبها .وقال الآخر:

ومنهل ليس له حوازقُ ... **ولضفادي** جمّة نقانقُ

يريد ولضفادع.

ومنه أيضا إظهار التضعيف في الكلمة مثل قول الشاعر:

مهلا أعاذل قد جربت من خلقي ... أني أجود لأقوام وأن **ضنِنوا**

وأما صرف ما لا ينصرف كقول حسان بن ثابت:

وجبريلٌ أمين الله فينا ... وروح القدس ليس له كِفاءُ

ومنع الصرف مما ينصرف كما أنشدوا قول العباس بن مرداس:

وما كان حصن ولا حابس ... يفوقان **كرداسَ** في مجمع

وكما قال البحتري:

هزج الصهيل كأن في نغماته ... نبرات **معبدَ** في الثقيل الأول

فمنعا الصرف عن مرداس ومعبد.

وقصر الممدود كقول الآخر:

والقارح **العدا** وكل طمرّة ... ما إن تنال يد الطويل قذالها

ومد المقصور على ما روى بعضهم:

سيغنيني الذي أغناك عني ... فلا فقر يدوم ولا **غناءُ**

وحذف الأعراب للضرورة مثل قول امرىء القيس بن حجر:

فاليوم **أشربْ** غير مستحقب ... إثما من الله ولا واغلِ

وتأنيث المذكر على بعض التأويل كقول الشاعر:

وتشرق بالقول الذي قد أذعته ... كما **شرقتْ** صدر القناة من الدمِ

فإن هذا وأشباهه وما يجري مجراه وإن لم يؤثر في فصاحة الكلمة كبير تأثير فإنني أوثر صيانتها عنه لأن الفصاحة تنبىء عن اختيار الكلمة وحسنها وطلاوتها. ولها من هذه الأمور صفة نقص فيجب اطراحها. على أن ما ذكرته يختلف قبحه في بعض المواضع دون بعض على قدر التأويل فيه وحكمه.

فأما إدخال الألف واللام على الفعل في نحو قول الشاعر:

يقول الخنا وأبغض العجم ناطقا ... إلى ربنا صوت الحمار **اليَجدعُ**

وتحريك الياء التي تقع قبلها كسرة في الرفع والجر مثل قول الشاعر:

ما إن رأيت ولا أرى في مدتي ... **كجواري** يلعبن في الصحراء

فإن هذا كله داخل في باب الزيادة التي ذكرناها وأشرنا إليها وهي مكروهة على ما تقدم.

والسادس :أن لا تكون الكلمة قد عُبِّر بها عن أمر آخر يكره ذكره. فإذا أوردت وهي غير مقصود بها ذلك المعنى قبحت وأن كملت فيها الصفات التي بيناها . ومثال هذا قول عروة بن الورد العبسي :

قلت لقوم في الكنيف تروّحوا ... عشيةَ بتنا عند ما وان رُزّح

والكنيف أصله الساتر ومنه قيل للترس كنيف. غير أنه قد استعمل في الآبار التي تستر الحدث وشهرتها. فأنا أكرهه في شعر عروة وإن كان ورد موردا صحيحاً لموافقة هذا العرف الطارىء.

على أن لعروة عذراً وهو جواز أن يكون هذا الاستعمال حدث بعده. بل لا أشك أنه كذلك لأن العرب أهل الوبر لم يكونوا يعرفون هذه الآبار. فهو وأن كان معذوراً وغير ملوم فبيته مما يصح التمثيل به.

ومن هذا النحو قول أبي تمام:

متفجر نادمتُه فكأنني ... **للدلوِ** أو للمرزمين نديمُ

فالدلو ها هنا أحد البروج ولا أختاره لموافقته اسم الدلو المعروف.

وأنت تجد بأقرب تأمل فرق ما بين قول القائل لمن يمدحه :أنت المرزم جودا والجنة لمن تقصده الأيام عزا . وبين قوله : أنت الدلو كرماً والكنيف لطريد الدهر سعة. والمعنيان صحيحان.

وحسن أحدهما وقبح الآخر ظاهر لإخفاء به. ولولا ما ذكرته ونبهت عليه لم يكن لذلك وجه ولا علة.
فأما قول عمرو :

وكم من **غائط** من دون سلمى ... قليل الأنس ليس به كتيع

فجار هذا المجرى.
والغائط البطن من الأرض إلا أنه يستعمل الآن في الحدث على ذلك الأصل. فذكره قبيح على ما تقدم. لكن عمرو معذور كعروة لأنه على ما ذكر وعرف حدث.

والسابع : مما قدمناه أن تكون الكلمة معتدلة غير كثيرة الحروففإنها متى زادت على الأمثلة المعتادة المعروفة قبحت وخرجت عن وجه من وجوه الفصاحة.
ومن ذلك قول أبي نصر بن نباته:

فإياكم أن تكشفوا عن رؤوسكم ... ألا أن **مغناطيسهنَ** الذوائبُ

فمغناطيسهن كلمة غير مرضية لما ذكرته وأن كان فيها أيضاً عيوب أخر مما قدمناه.
ومن هذا النوع أيضاً قول أبي تمام:

فلأذربيجانَ اختيال بعد ما ... كانت معرّس عبرة ونكالِ

سمجت ونبهنا على **استسماجها** ... ما حولها من نضرة وجمال

فقوله : فلأذربيجان كلمة رديئة لطولها وكثرة حروفها وهي غير عربية ولكن هذا وجه قبحها.
وكذلك قوله في البيت الثاني : استسماجها رديء لكثرة الحروف وخروج الكلمة بذلك عن المعتاد في الألفاظ إلى الشاذ النادر.
ونحو من هذا قول أبي الطيب المتنبي:

إن الكريم بلا كرام منهمُ ... مثل القلوب بلا **سويداواتها**

فسويداواتها كلمة طويلة جدا فلذلك لا أختارها.
ومنه أيضا قول أبي تمام:

أنِلْهُ **باستماعِكَهُ** محلا ... يفوت عُلوُّه الطرف الطموحا

فليس بقبح قوله : باستماعكه خفاء لكثرة الحروف على ما ذكرناه لا غير.

والثامن : أن تكون الكلمة مصغرة في موضع عبر بها فيه عن شيء لطيف أو خفي أو قليل أو ما يجري مجرى ذلك . فإني أراها تحسن به ويجب ذكره في الأقسام المفصلة ولعل ذلك لموقع الاحصار بالتصغير ومثال ذلك قول الشريف الرضي رحمه الله:

يولع الطل بردينا وقد نسمت ... **رُويحَةٌ** الفجر بين الضال والسلَمِ

فلما كانت الريح المقصودة هناك نسيما مريضاً ضعيفاً حسنت العبارة عنه بالتصغير وكان للكلمة طلاوة وعذوبة.
ومثاله أيضا قول أبي العلاء صاعد بن عيسى الكاتب:

إذا لاح من برق العقيق **وميضةٌ** ... تدقُّ على لمح العيون الشوائمِ

أفلا تراه لما أراد أنها خفية تدق على من ينظرها حسن التصغير في العبارة عنها.
وكذلك قول شيخنا أبي العلاء بن سليمان:

إذا شربت رأيت الماء فيها ... **أُزيرقُ** ليس يستره الجرانُ

لما كان ماء قليلا يلوح ودونه حائل من أعناق الإبل وساتر على كل حال حسن وروده مصغراً.

وأما قول المخزومي:

وغاب قميرٌ كنت أرجو طلوعه ... وروَّحَ رعيانٌ ونوَّمَ سمَّرُ

فإنما جعله قميراً لأنه كان هلالا غير كامل ويمكن الدلالة على ذلك بقوله :إنه غاب في أول الليل وقت نوم السمر والقمر إذا كان هلالا غاب في ذلك الوقت بلا شك .وهذا تصغير مختار في موضعه فأما الأسماء التي لم ينطق بها إلا مصغرة كاللجين والثريا وما أشبههما فليس للتصغير فيهما حسن يذكر لأنه غير مقصود به ما قدمناه ولذلك لا أختار التصغير في قول أبي الطيب:

إذا عذلوا فيها أجبت بأنة ... حُبيِّبتا قلبي فؤادي هيا جمْلُ

لأنه عار من الوجه الذي ذكرته.

فهذه الأقسام الثمانية هي جملة ما يحتاج إلى معرفته في اللفظة لمفردة بغير تأليف فتأملها وقس عليها ما يرد عليك من الألفاظ فإنك تعلم الفصيح منها من غيره إن شاء الله تعالى."[1]

وهذه الشروط الثمانية المتعلقة بالألفاظ المفردة، هي ذاتها التي تشترط عند اجتماع الألفاظ منظوما بعضها مع بعض. وقد فصل الخفاجي الحديث في هذا الشأن ودعّمه بما يكفي من الأمثلة.

---

[1] المصدر السابق، ص86-111.